حسن الزريجاوي *

تخلّف المسلمين في العصر الحديث

المظاهر والأسباب

(الصفحات ١٧٧- ١٨٢)

ملخّص

الإسلام يقرّبسقوط الدول والحضارات عندما تتكاتف الأمراض الحضارية وأهمها: أولًا: الانفصام الروحي واضطراب موازنة العلاقة مع الله تعالى وذلك بالتنكرله أوالانحراف عن شريعته ومنهجه، ثانيًا: العبث الإنساني وسوء التعامل مع خيرات الوجود، ثالثًا: اضطراب المقاييس وضياع الغاية، رابعًا: الانقسام والتفرقة.

ردّ بعض الأسباب المدّعاة لتخلّف المسلمين

ما من شك أن ظاهرة مشرقة ونورًا وضاءً باسم الحضارة الاسلامية كان قد اكتسح العالم وأنارللبشرية طريقها لقرون عديدة، وما من شك أيضًا –ولا من التشاؤم أن نقول –إن هذا الضوء المنيرقد خفت، و إن المسلمين اليوم يقبعون في آخرالقائمة من أمم هذا العالم المتطورة.

وهنا يطرح السؤال نفسه وبإلحاح: كيف عاد المسلمون بعد كل ذلك التقدم والرقي يعيشون القهقري؟

وما هو أو مَنْ هو المسؤول عن هذا التقهقر؟!

---

* - كاتب عراقي .

هل ذلك «هو مقتضى الحتمية التاريخية والطبيعة العامة للتاريخ التي تفرض على الأمة التي طوت سبيل علاها ورقيها في مرحلة معينة أن تتجه نحو الفناء والانحطاط بعد ذلك؟» [1] أم ليس الأمر كذلك، وإنما توجد عوامل أخرى هي السبب في انحطاط المسلمين؟

وإذا كان الجواب بنعم وأنه توجد عوامل أخرى هي السبب في انحطاط المسلمين، فما هي هذه العوامل؟

وأين الخلل؟ هل إن الحضارة الاسلامية ولدت وهي تحمل عامل موتها أم ليس الأمر كذلك، وبعبارة: هل إن الخلل في أصل الفكرة الاسلامية، أم إن الفكرة مبرّأة وإن المسلمين وحدهم هم المسؤولون عما آلت إليه أوضاعهم؟؟

أم لا هذا ولا ذاك، فلا خلل لا في الاسلام ولا في المسلمين، وإنما هي عوامل خارجية ومؤامرات محيطة أوصلت المسلمين إلى ما وصلوا إليه من الانحطاط والضعف؟

وقبل الإجابة عن هذه التساؤلات نقول: إن صحّت فلسفة المادية التاريخية «وإن كل حضارة تلقى مصرعها على يد العامل الذي أولدها، لم نكن لنحتاج للبحث عن عنصر أجنبي يكون ظهوره سببًا في الكارثة» [2]، ذلك أن نفس العوامل التي ساعدت الأمة على النهوض هي التي تعرقل المسيرة بل وتعود بها إلى الخلف دائمًا. واستنادًا إلى هذه الفلسفة لا يبقى معنى للبحث عل علل انحطاط المسلمين كبحث مستقلّ منفك عن العلل التي شكّلت الحضارة من قبل. ولا معنى أيضًا لأن نلقي تبعة الانحطاط على شخص أو جماعة أو أمة.. إذ يكون فناء الحضارة الاسلامية – كفناء أية حضارة أخرى بل أية ظاهرة حية أخرى – نتيجة حلول الأجل الطبيعي أو غير الطبيعي [3]. الذي لابدّ أن يحصل.

ولأن هذه الصفحات لا تتسع لمناقشة تفاصيل هذه النظرية فنحن نرجع القارئ الكريم إلى دراسات مفصلة لعلمائنا حولها [4] وسوف نسلّم هنا – كأصل موضوعي -بعدم قبول هذه الفلسفة، ونقول على نحو الإيجاز الشديد: إن الاسلام وإن كان يعترف بسقوط الدول والحضارات عندما تتكاثف الأمراض

الحضارية في شكل ظاهرة اصطلح عليها القرآن الكريم بالاستبدال تارة وبالاستخلاف أخرى [٥]، إلاّ أنه لم يجعل ذلك قدرًا أو حتمية لا يمكن أن تفلت منها جماعة أو أمة.

ونحن إن عُدنا إلى القرآن الكريم لنستقرئ نصوصه في هذا المجال لوجدناه يحدد أهم أسباب السقوط الحضاري في عدّة نقاط أساسية منها:

أولًا: الانفصام الروحي واضطراب موازنة العلاقة مع الله تعالى وذلك بالتنكر له أو الانحراف عن شريعته ومنهجه.

يعدّ الإيمان بالله تعالى أحد أهمّ قوانين الوجود الفطرية التي فطر الإنسان عليها [٦] وصنعت على هداه مسيرته في الحياة، ولذا كان التنصل عن هذا الإيمان بإنكار الخالق أصلًا أو بالانحراف عن منهجه وشريعته — يمثّل سيرًا باتجاه السقوط لأنه هدم لقوانين الوجود وتضاد مع أهداف الحياة، وبه تبدأ الحضارة الإنسانية تتجه نحو الانحدار والتلاشي.

فـ«السقوط الحضاري في هذه الحالة سيكون نتيجة حتمية؛ لأن الحياة الإنسانية أصبحت تسير عكس أهدافها، وأن الروح الحضارية للإنسانية لم تكن قادرة على صياغة أهداف الحياة التي تبحث — بطبيعة وجودها وكوامن استعدادها — عن طريق النمو والتكامل باتجاه مبدئها الحق وخالقها العظيم» [٧].

والواقع أن مشكلتنا — على وجه التحديد — لا تكمن في تخلي المسلم عن عقيدته؛ لأن المسلم — في الأعم الأغلب — لم يتخل عن عقيدته «ولكن عقيدته تجردت من فاعليتها؛ لأنها فقدت إشعاعها الاجتماعي» [٨]. فالمسلم ربما حافظ على إيمانه، ولكنه إيمان ليس بذي روح إذ لم يفعّل على مستوى السلوك، ومثل هذا الإيمان لا يحرر الإنسان من قيوده وهو الهدف المنشود من عقيدة التوحيد، يقول الشهيد محمد باقر الصدر(رض): «إن المعنى الحقيقي للإيمان ليس هو العقيدة المحنطة في القلب، بل الشعلة التي تتقد وتشع بضوئها على الآخرين» [٩].

ثانيًا: العبث الإنساني وسوء التعامل مع خيرات الوجود

والسبب الثاني من أسباب السقوط الحضاري هو سوء التعامل مع الوجود وعدم

استعمال الأشياء في مواضعها، فإذا ظهرت هذه الحالة في مجتمع من المجتمعات، واستعمل الإنسان خيرات الوجود ونعمه استعمالًا غير متطابق مع الغاية الطبيعية التي خلق من أجلها الشيء والتي قررت من قِبل المولى جلّت قدرته فتلك الخطوة الأولى لجنوح الحضارة نحو التآكل والانهيار.

يقول سبحانه: ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاء وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾[١٠] ويقول سبحانه أيضًا: ﴿وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾[١١].

فبسبب سوء تصرفهم في أنعم الله وسوء استعمالهم للخيرات ألبسهم الله عزوجلّ مصيبة الجوع والخوف، وهما رمزان صارخان للبؤس الحضاري[١٢].

ويقول سبحانه أيضًا: ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا ﴾[١٣].

وهذه الآية الكريمة تتحدث عن العلاقة بين الاستقامة وتطبيق أحكام الله سبحانه وتعالى وبين وفرة الخيرات، «وبلغة اليوم بين عدالة التوزيع وبين وفرة الإنتاج»[١٤].

فالقرآن الكريم يؤكد في هذه الآية –ومثيلاتها– أن «تطبيق شريعة السماء وتجسيد أحكامها في علاقات التوزيع[١٥] تؤدي دائمًا وباستمرار[١٦] إلى وفرة الإنتاج و إلى زيادة الثروة»[١٧].

ثالثًا: اضطراب المقاييس وضياع الغاية

والسبب الثالث من أسباب السقوط هو اضطراب المقاييس وضياع الهدف والغاية وذهول الحضارة عن أهدافها الإنسانية. فحينما يحدث الخلط بين قيم الخير والشر ويسير الإنسان بلا هدف، وتنتحر القيم ويخفت صوت الروح، اعلم أنه السير نحو الكارثة أو إنه البقاء في موضع الكارثة[١٨].

رابعًا: الانقسام والتفرقة

يقول عزّ من قائل في كتابه الكريم: ﴿ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ

رِيحُكُمْ﴾[١٩]، ونقل عن الرسول(ص) أنه قال: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[٢٠].

ففي الانقسام والتفرقة تضاغن للقلوب وتشاحن للصدوروتخاذل للأيدي ومرتع لكل مفسدة، وهي أموريكفي كل واحد منها -لو حصل -في انهيار الحضارة.

مفردة التفرقة والانقسام من أهم مفردات مأساتنا.

فقد برزت بصورة مبكرة جدًا حالة من التفكك والانقسام في المجتمع الاسلامي، إذ أفرزت حادثة السقيفة سنة (١١) هجرية تيارين في الأمة، أصبح لكل منهما – فيما بعد – مرجعيته الفكرية والفقهية والعقائدية التي تختلف عن مرجعية التيارالآخر، وكانت طبيعة الأمورتقتضي أن يؤدي هذا الانقسام إلى انهيارالإسلام وهولم يزل في مرحلة البناء والنمو.

ولكن الموقف الحضاري للإمام علي(ع) منع من ذلك الانهيار، واستطاع الإمام(ع) بصبره ومبدئيته أن يحافظ على الإسلام بالقدرالذي يحفظه من الانكساروهولم يترسخ في القلوب بعد. وعاش المسلمون مشكلة مؤجلة طيلة فترة الخلافة الراشدة.

وربما كانت هذه الفترة -التي سالم فيها الإمام تقديرًا منه للمصلحة الأهم[٢١].

الهوامش:

١- الشهيد المطهري، *الإنسان والقدر*، ترجمة محمد علي التسخيري، المطبعة سپهر– طهران، ١٤٠٤هـ ق، الناشر: مركزإعلام الذكرى الخامسة لانتصارالثورة الاسلامية، ص ١٥.

٢ - المصدرنفسه، ص ١٦.

٣ - المصدرنفسه، ص ١٧.

٤ - للتوسع في معرفة نظرية المادية التاريخية راجع *اقتصادنا* للسيد الشهيد الصدر، الناشر: المجمع العلمي للشهيد الصدر، الطبعة الثانية، نظرية المادية التاريخية ص ٣٩- ٢٢٤، وأيضًا: *المجتمع والتاريخ* للشهيد المطهري، ترجمة محمد علي آذرشب، توزيع مؤسسة البعثة – طهران، القسم الأول، ط ١، ص ٦٨ – ١٢٣؛ ومذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب، دارالكتاب الاسلامي – قم، ص ٢٨١ - ٢٩٣.

٥ - يقول عزمن قائل في كتابه الكريم: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ سورة محمد.

٦ - يقول عزّمن قائل في كتابه الكريم: ﴿فطرة الله التي فطرالناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ سورة الروم. الآية ٣٠.

٧ - لجنة التأليف في مؤسسة البلاغ، *لماذا السقوط الحضاري*، ص ٢٤ - ٢٥.

٨ - مالك بن نبيّ، *وجهة العالم الاسلامي*، ص ٥٤.

٩ - السيد الشهيد محمد باقرالصدر، *الاسلام يقود الحياة*. دارالمعارف –بيروت، ص ١٧٥.

١٠ - سورة الأنبياء، الآية ٩.

١١ - سورة النحل، الآية ١١٢.

١٢ - لجنة التأليف في مؤسسة البلاغ، *لماذا السقوط الحضاري*، ص ٢٥ - ٢٧.

١٣ - سورة الجن، الآية ١٦.

١٤ - السيد الشهيد محمد باقرالصدر، *المدرسة القرآنية، السنن التاريخية في القرآن الكريم*، دارالتعارف – بيروت، ص ٦٩.

١٥ - يعبرالقرآن الكريم عن عدالة التوزيع بالاستقامة على الطريقة، ﴿وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءً غدقًا﴾ سورة الجن، الآية ١٦. وأخرى : بالإيمان والتقوى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ سورة الأعراف، الآية ٦٩. وثالثة: بإقامة التوارة والإنجيل والإيمان بما أنزل الله سبحانه: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ المائدة/ ٦٦. ذلك لأن شريعة السماء نزلت من أجل إنشاء علاقات التوزيع على أسس عادلة. انظرالسيد الشهيد محمد باقرالصدر، *المدرسة القرآنية، السنن التاريخية في القرآن الكريم*، ص ٦٩

١٦ - بحسب السنن الالهية التي لاتتخلف.

١٧ - السيد الشهيد محمد باقرالصدر، *المدرسة القرآنية، السنن التاريخية في القرآن الكريم*، ص ٦٩ - ٧٠.

١٨ - لجنة التأليف في مؤسسة البلاغ، لماذا السقوط الحضاري، ص ٢٧ - ٢٨.

١٩ - سورة الأنفال، الآية ٤٦.

٢٠ - علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، *كنزالعمال*، مؤسسة الرسالة –بيروت ، ط ٥، ١٤٠٥هـ١٩٨٥م، ج ١، ص ١٧٧، ح ٨٩٤.

٢١ - أعلن الامام (ع) –في أكثرمن موضع –أن موقفة إنما هو نابع من تقديمه لمصلحة الاسلام العليا.